الهجرة والأخلاق

للأستاذ محمد يوسف موسى

الهجرة من الناحية التاريخية حادث من أبرز الحوادث فى تاريخ الاسلام إذ كانت فاتحة عهده ، ومقدمة علو كلمته على الشرك والمشركين . بها أعز الله الاسلام ، وصار المسلمون بعد أن كانوا يستخفون من قلته ، ويتسللون لواذاً للمدينة فارين بدينهم وأنفسهم ، أقوياء بعد ضعف ، فيهاجمون قريشاً ومن حالفها ، وقد كانوا لا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم عدوان المشركين وجبروتهم . لا جرم أن أفاض المؤرخون والكتاب فى هذا الحادث ؛ يصفونه ، ويقصون ما كان من أمره فى بدئه ونهايته .

لكن للهجرة نواحيها الأخرى التى لا تقل عن الناحية التاريخية خطراً ، والتى يجب فيما أرى أن نتذكرها ففى هذا عظة وخير . من هذه النواحى الناحية التى تتصل بالأخلاق .

كلما تذكرنا هجرة النبى صلى الله عليه وسلم من مكة مثابة قومه إلى المدينة مستقر أنصاره ، تتمثل المبدأ القويم واعتزاز صاحبه به ، ومحافظته عليه ، ولو وقف الموت فى سبيله أو عرضت عليه الدنيا بأسرها ، كما تتمثل التضحية فى سبيل المبدأ بالمال والولد وسائر ما تحرص عليه فطرة الانسان وطبيعته . لقد صدع الرسول الشجاع بما أمر به ، فلقى قومه من ذلك عظيماً ، ورأوا فيه تسفيهاً لأحلامهم ، وسباً لآلهتهم ، واستهانة بما كان أسلافهم عليه من عقائد موروثة ودين مقدس عزيز . هبت قريش تتلمس السبل للتخلص من هذا الذى أقض عليهم مضاجعهم ، وكان لهم فى هذا محاولات عدة ، باءوا من جميعها بالفشل ؛ ومنها ما عرضوه من أن يُملِّكوه عليهم ، فيكون الملك المطاع ، وهم الرعية الخاضعة . رفض الرسول إذاً كل ما تقدمت به قريش ؛ إذ وجد فى ذلك ما يحول دونه ودون ما أخذ نفسه به من الجهر بالدين حتى ينال النصر ، وتكون كلمة الله هى العليا . وفى ذلك موضع الذكرى والعظة !

ورأت قريش مع هذا أن تعالج الأمر من ناحية أخرى بالقوة العارمة والعذاب الشديد للمستضعفين من المسلمين تريد فتنتهم وردهم للكفر وقد نجاهم الله منه . لكن هؤلاء قابلوا الفتنة بالصبر والتضحية قبل الهجرة وحين شرعوا فيها . كان أول من هاجر إلى المدينة — فيما يروى ابن إسحاق — أبو سلمة عبد الله . فلما أجمع الخروج فرقت قريش بينه وبين زوجه وابنه ، فطاب عنهما نفساً وبقيا بمكة ولم يلحقا به إلا بعد سنة أو قريباً منها[1] .

وصهيب بن سنان يروى ابن هشام حديثه لما أزمع الهجرة فيقول : إنه لما أراد الهجرة قال له كفار قريش : أتيتنا صعلوكاً حقيراً فكثر مالك عندنا وبلغت الذى بلغت ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك . والله لا يكون ذلك ! فقال لهم صهيب : أرأيتم إن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلى ؟ قالوا : نعم . قال : فإنى قد جعلت لكم مالى . فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ربح صهيب ، ربح صهيب[2]

هكذا كان ثبات النبى وصحبه على المبدأ وتضحيتهم فى سبيله بالنفس والنفيس وصبرهم على الأذى . أما نحن فإن الواحد منا يرى وجهاً من وجوه الإصلاح ويعتقد أن فى الدعوة إليه ونشره وأخذ الناس به الخير كل الخير لأمته ؛ ثم يعد العدة للتبشير به مؤكداً لنفسه ولمن يحيط به أنه جاد فيما يرى ، صادق فيما يقول ، قائم بالدعوة مهما لقى فى سبيلها ، باذل فى ذلك من وقته وماله ونفسه . وما هو إلا أن يلتف فريق من الناس حوله وإلا أن يلوح له بعض ذوى الجاه والسلطان بسيف المعز وذهبه حتى ينكشف ويتضاءل فيعود مسخاً ليس له من الرجولة إلا الإسم ؛ وليس له من ماضيه وما كان اعتزم وقدر وقرر إلا الذكريات التى تتراءى له صوراً وأشباحاً تألم لها نفسه إن كان لم يفقد ضميره بعد ، أو لا يأبه لها ولا يباليها ؛ بل ويسخر منها إن كان فقد مع رجولته الضمير الحر الحساس أيضاً !

هل نحن فى حاجة لضرب الأمثال لهذا الداء الذى شرى

(١) سيرة ابن هشام طبع مصطفى محمد ج ٢ ص ٧٧ — ٧٨

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٨٩

فما أظن أن من السهل أن تطيب له ونبرأ منه ، أعني داء عدم الاعتداد بالمبدأ والتمسك به ، مهما قامت العقبات وتعقدت الأمور ما دام في التمسك به خير وصلاح الأمة . المُثُل لهذا كثيرة ؛ نجدها في الميدان السياسي ، ونجدها في الميدان الاجتماعي ، ونجدها في الميدان الاقتصادي ؛ وأخيراً نجدها في الميدان الديني . لنلق نظرة على ما صدر من الصحف في هذه السنوات الأخيرة نجدها ملأى بالدعوات الحارة لمبادئ مختلفة رأى الدعاة إليها خيراً كثيراً في تحققها ، وربما ألفت لجان لبعضها تفحصها وتشير إلى وسائل جعلها حقائق فعلية بدل أن تظل أمانى تجيش بها الصدور وتلج بها الألسنة . ولكن ما هي إلا أيام أو شهور ونرى الدعاة قد استوعرروا الطريق واستطالوا الشقة ، أو رأوا فيما يدعون إليه ما ينفّر رئيساً أو ذا جاه ، في ترك ما حسبوه جرى منهم مجرى الدم من مبدأ أو فكرة ما يقربهم زلفى إلى هذا الرئيس أو ذي الجاه ؛ حينئذ ينقلب الواحد من هؤلاء على عقبيه ، وينكر ماضيه ويترك مبدأه ويعيش متمتعاً بما نال من حظوة وكسب من صيت وشهرة باعتباره رجلاً من رجال الإصلاح !

إن كنت مبالغاً في هذا الذي أقول فلتتذكر أن لنا بالقاهرة وحدها عشرات من الجمعيات الدينية والاجتماعية ولكل منها مبادئ قامت فيما تزعم عليها . وأنه ما من واحدة من هذه الجمعيات أخلصت أو تخلص لمبادئها وجدت أو تجد في الدعوة إليها أو تحقيقها ! هل ربت جماعات الكشافة التي تزخر بها المدارس تلميذاً واحداً على الصدق في القول والاستقلال في الرأي والاكتفاء بالنفس ، ومعاونة الغير ، ونحو هذا من مبادئ الكشف والكشافة ؟ هل أفلحت جمعيات المسلمين في جعل فريق من الناس ولو من أعضائها مسلمين حقاً يعرفون — ويعملون بما يعرفون — أن الصدق في المعاملة من الدين ، وأن اعتبار المؤمنين جميعاً إخوة أساس الدين ، وأن كراهة الظلم والظالمين مما يحتمه الدين ويدعو إلى أن يظهر بطريقة عملية تردع هؤلاء الظالمين ؟ هل أخذ أعضاء هذه الجمعيات الدينية — التي تدعو للحشمة والصون والعفاف ، وتحارب فيما تزعم التبرج والخروج عن الدين — أهلهم وأولادهم جميعاً بحدود الدين وألزموهم سننه وشرائعه ؟ معاذ الله أن يغلوا هذا وأن يلتزموا المبادئ التي يدعو إليها وأن يكون لهم في ثبات النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الصادقين على المبدأ الحق عظة وذكرى !

إذا تركنا هذا النحو من القول ، وانعطفنا ثانية لحادث الهجرة نجد فيه مجالاً لملاحظات أخر من الخير أن نشير إلى بعضها . هاجر النبي وصاحبه الصديق إلى المدينة فماذا فعل ؟ كان أول ما عمل أن آخى بين المهاجرين والأنصار ليكونوا يداً واحدة على من عاداهم ؛ وكان من هؤلاء الأنصار أن واسوا إخوانهم المهاجرين وشاطروهم ما يملكون ، وآثروهم ولو كان بهم خصاصة ، فكانوا بذلك مؤمنين حقاً ؛ حسن إيمانهم ، وخلصت قلوبهم ، ورأوا من الكذب والزور أن يزعم الواحد منهم أنه أخ لمن يشركه في الدين ثم يستأثر بما أنعم الله عليه به ، ويزوى عنه حقه فيه ؛ ويحتجن دونه نصيبه منه

أما نحن فنلوك بألسنتنا أن المؤمن أخ المؤمن لا يظلمه ولا يسلمه ؛ ونقرأ كثيراً قول الله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » ؛ وقول الرسول الحكيم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . نعلم هذا كله ثم لا نؤدي الزكاة ، ولا نواسي المحتاج ؛ ولا نرحم البائس الفقير ؛ ونزعم مع ذلك أننا مؤمنون حقاً ؛ وأننا بمنجاة من سخط الله وعذابه لأننا قائمون له بما يجب ! ناسين أو متناسين ما رواه عبد الله بن عمر إذ يقول : « أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا معشر المهاجرين ، خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة في قوم حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا ؛ ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان عليهم ؛ ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ؛ ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم ؛ وما لم تحكم أئمتهم بما أنزل الله ؛ ويتخيروا مما أنزل إليهم إلا جعل بأسهم بينهم » !

يميناً بالله أني أرى أنا نستحق الآن أن يسمنا الله بعذاب من عنده ، لولا ما فينا من شيوخ ركّع ، وأطفال رضع ، وبهائم رتع ! لقد اجتمعت فينا هذه الخمس التي خافها الرسول

على المؤمنين المهاجرين . فقد منعنا الزكاة والتمسنا لهذا الفتاوى الباطلة والتعلات الكاذبة ! وظهرت الفاحشة فينا ، بل جعلنا لها ولحمايتها اللوائح والقوانين ! وفشا الغش والتدليس فى المعاملة ، وصار ذلك باباً من المهارة يُطلب أن يحذقه التاجر والصانع ومن إليهما ! واستعرنا ما نتحاكم إليه من قوانين من فرنسا وغير فرنسا نابذين كتاب الله وما جاء به من شرائع ظهرياً ! وصار الغنى لا يرى بأساً فى أن يسكن القصر ويملك الآلاف ويبيت يشكو البطنة والتخمة ، ويجواره وحواليه الثلات من إخوانه فى الدين والوطن جياعا معدمين ! ومع هذا كله نزعم أننا بخير ، وأن الدين لا يزال ثابت الدعائم مرعى السنن والآداب والأحكام !

بذلك الإهمال للدين ، واطراح ما يأمر به الله من سنن وتشاريع ، وبترك النصح للعامة والخاصة ، صرنا فى أمر مريج ولبس شديد ، وصار المرام صعباً ، والمطلب وعراً ، والمسلك حزناً . ولو أننا اتعظنا بالحادثات وراعينا صالح الدين والوطن قبل كل شىء وائتمرنا بما يأمر به الله وانتهينا بنهيه ، لسهل الأمر وسلس ، وصار قريب التناول ، سهل المقاد !

بقيت كلمة أخيرة تخطر بالبال كلما انتهى العام وبدأ آخر : هى أنه كما يقول حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالى رضوان الله عليه : ترى التجار يحاسب الواحد منهم نفسه فى شهر أو عام ليعرف كسبه من خسرانه ؛ فإن كان الأول حمد الله واستزاده منه ، وإن كان الآخر بحث الأسباب ليتلافاها فلا يقع فيها مرة أخرى ؛ إذا كان هذا عادة التجار ، مع أن الخسارة أو الكسب لن يكون إلا شيئاً من حطام هذه الدنيا ، فكيف يليق بالعاقل ألا يحاسب نفسه كل ليلة ساعة يأوى لفراشه على ما عمل سحابة نهاره !

لست أطمع فى الوفاء بما يطلب الغزالى من حساب المرء نفسه كل ليلة ، وغاية الذى أرجو أن يكون الحساب آخر كل عام ؛ حتى نستقبل العام الجديد بنفوس راضية تائبة عازمة على أن تكون فيه خيراً منها فى العام الذى انتهى . هدانا الله إلى الصراط المستقيم ؛ وجعلنا من الذين إن تقلد الواحد منهم عملاً سواه ، وإن رأى ضالاً هداه ، وإن آنس أوداً ثقفه . إنه المستعان

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين

إعلان

تعلن وزارة العدل المصالح والجمهور بفقد دفتر الزواج رقم ١٨٠٣٥٤ المستعمل منه القسائم من رقم (١) الى رقم (١٤) وباقى قسائمه بيضاء بغير استعمال ودفتر اشهادات الطلاق رقم ٥١٥٤١ المستعمل منه القسائم من رقم (١) إلى رقم (٧) وباقى قسائمه بيضاء بغير استعمال ، المسلمين الى مأذون ناحية الديمقراط مركز اسنا . وقد اعتبرت الوزارة القسائم البيضاء فى الدفترين لاغية ، فكل من حاول استعمالها يعرض نفسه للمحاكمة الجنائية . ٩٠٣٧

وزارة الزراعة

إعلان

تقبل العطاءات بإدارة المخازن والمشتريات بالدقى لغاية ظهر يوم ٨ مارس سنة ١٩٤٢ عن توريد :

١ — قصارى نخار

٢ — أدوات ميكانيكية وقطع غيار لورشة الحلاجة لأقسام الوزارة

ويمكن الحصول على الشروط والمواصفات من الإدارة المذكورة يومياً ما عدا العطلات الرسمية مقابل دفع مبلغ ٣٠ مليماً بخلاف ٢٠ مليماً أجرة البريد وذلك عن كل مناقصة . ٩٠٣٢